اقتباس العلوم الانسانية النموذج التصوري الجديد لأحدث النظريات العلمية المعاصرة

د/ قيلامين صباح (أستاذة محاضرة "أ")

كلية العلوم الاجتماعية،جامعة خميس مليانة ، الجزائر

د/بوصالحيح حمدان (أستاذ محاضر أ)

كلية العلوم الاجتماعية،جامعة زيان عاشور،الجلفة،الجزائر

مقدمة

لقد ادى التقدم العلمي في مجال الطبيعية إلى ظهور نظريات تحاول تفسير فوضى الظواهر الطبيعية وإخضاعها لقوانين عن طريق "نظرية الفوضى"،وقد مس هذا التحول الاسس الجوهرية للتصور العلمي ،فأدى إلى الانتقال من التصور الخطي الذي يؤمن بتنظيم منهجي ثابت تمليه السببية والحتمية إلى تصور مغاير تماما،تمثل في المجال الديناميكي المتغير والمتعدد الأشكال والأبعاد،غالبا ما تكون تأثيراته وامتداداته غير مرتقبة وغير محددة ،لتتناقض تماما مع المبادئ التي اعتاد عليها الفكر العلمي لمدة طويلة من الزمن .

والمثير للانتباه أن التصور البشري قد تأثر كثيرا بالمنطق العلمي الخطي إلى درجة أنه تبناه كمنهج لا مثيل له فأدخله في كثير من ميادينه الفكرية والعلمية وكذا الانسانية،وعليه فبينما كانت العلوم الإنسانية تواجه عوائق عديدة في محاولة إحراز المزيد من الموضوعية والدقة التجريبية حتى تكون في نفس المستوى من العلوم الدقيقة الاخرى،هاهي هذه العلوم من خلال روادها تتوصل إلى نتائج مذهلة ومحيرة للغاية،أدخلت الفكر العلمي كله في دوامة من الشك وإعادة النظر في قواعده وقوانينه الثابتة، فلقد تبين أن الظاهرة الطبيعية ظاهرة غير ثابتة، فهي متغيرة ومتقلبة ولا يمكن التنبؤ بها كما ألفها التصور سابقا،وبما أن الظاهرة الإنسانية هي أصلا ظاهرة ديناميكية متغيرة ومتقلبة وغير مرتقبة،فهي ظاهرة لاخطية متعددة الأشكال والأبعاد،وهي في ذلك تقترب من مواصفات الظاهرة الطبيعية الفيزيائية،التي أصبحت خاضعة في تفسيراتها إلى نظرية الفوضى،وهذا يدفعنا إلى طرح الإشكالية التالية:

إذا كانت العلوم الطبيعية الفيزيائية بخصائصها ومناهجها وافتراضاتها تقترب من خصوصيات الظاهرة الإنسانية،فهل يمكننا أن نوظف الأدوات الجديدة التي أتى بها النموذج التصوري الجديد القائم على نظرية الفوضى في العلوم الطبيعية لفهم الظاهرة الإنسانية ؟أي هل يصلح هذا المنظور العلمي الجديد لنظرية الفوضى لدراسة سلوك الإنسان الذي يتميز بالعشوائية و التغير و الديناميكية و اللاخطية ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١. ابستمولوجيا العلوم الانسانية

تهتم العلوم الانسانية بالبحث في أحوال الناس وسلوكهم[١]، فهي تدرس الإنسان بإعتباره موضوعا موجودا يتميز عن الجماد والنبات والحيوان بسمات خاصة،وتدخل هذه العلوم علم النفس،وعلم الاجتماع،وعلم الاقتصاد والتاريخ[٢]،ويسميها كانط بالعلوم ذات الطابع المعرفي تمثل جنسا معرفيا خاصا تقوم خصوصيته على خصوصية موضوعه بما هو جزء من الطبيعة يتميز عن سائر الأجزاء الأخرى ويتعالى عليها[٣]،فهي لم تعرف بدايتها العلمية الا في مرحلة متأخرة (ق١٩/٢٠) بعد فترة طويلة ظلت فيها موضوعا للتأمل الفلسفي. وقد ساهم هذا التأخر التاريخي الذي حققه منطق التطور العلمي في جعل لهذه العلوم الإنسانية ذات طبيعة إشكالية خصوصا في ظل تأثير النموذج الفيزيائي التجريبي الذي تبلور في سياق تطور العلوم الطبيعية، وتجلى في مدى قدرة علوم الإنسان على استيفاء شروط علميتها.

اما العلوم الطبيعية فهي جملة النتائج الكلية الموضوعية المكتسبة بمنهج والتي تعبر عن العلاقات الثابتة بين الظواهر التي يمكن التحقق منها،فهي تهدف إلى ايجاد تفسيرات الظواهر الطبيعية ومعرفة الأسباب التي تحدثها[٤]،وقد عرفت العلوم الطبيعية نجاحا باهرا من خلال ما وصلت اليه من قوانين، بينما لم تستطع بعد العلوم الإنسانية ان تكون نسق متكامل من القوانين التفسيرية يماثل من حيث القوة المنطقية انساق القوانين التفسيرية في أقل فروع العلوم الطبيعية ،وهذا ما يمثل بالنسبة لباحثي العلوم الإنسانية التحدي الذي ينبغي عليهم مواجهته للوصول بعلومهم الى مستوى يقارب مستوى العلوم الطبيعية " [٥].

ويرجع البعض سبب هذا العجز الى الصعوبات الإبستمولوجية والمنهجية ،المتعلقة بالخصائص التي تتميز بها الظاهرة الإنسانية عن الظاهرة الطبيعية،كصعوبة التكميم واستخدام القاطع كيفية وصعوبة صياغة قوانين دقيقة، فضلا عن تعقد الظواهر الإنسانية،وأن الباحث جزء لا يتجزأ من الظاهرة التي يبحثها،بالإضافة إلى عامل الحرية الإنسانية ،كما أن التنبؤ لا يقع على غير الكليات الشاملة التي لا تصل اليها موضوعات العلوم الإنسانية ،وكل هذه العوامل توضح الفارق الكبير بين موضوع العلوم الإنسانية وبين حدث كيميائي أو كهربائي أو حتى نظرية[٦] في العلوم الطبيعية ،فمثلا الظواهر الاجتماعية فريدة في نوعها،تحدث مرة واحدة ثم تمضي فتصبح حادثة تاريخية لا يتكرر حدوثها [٧].

---

[١] د. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان،١٩٨٢،ص١٠١.

[٢] د.إمام عبد الفتاح إمام ، مدخل إلى الفلسفة، دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ، ١٩٧٧،ص١٥٩.

[٣] عبد الحميد الحنصي،الفكر والحياة في فلسفة العلوم الإنسانية،دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت،لبنان،٢٠١٠،ص١١

[٤] ياسين خلفي، الفلسفة وقضايا اللغة: قراءة في التصور التحليلي،الدار العربية للعلوم الأولى ٢٠١٠، ص ١١٩

[٥] لا مسعلقي انور ،التفسير في العلوم الاجتماعية،دراسة في فلسفة العلم،دار الثقافة للنشر ،القاهرة،١٩٨٨، ص ٤١

[٦] رينيه موتو ، البحث عن الحقيقة ، وجودها و اشكالها و علاقتها بالحرية ، ترجمة هاشم الحسني ، مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٣٢

[٧] د. زكي نجيب محمود ، المنطق الوضعي ، ج٢ في فلسفة العلوم ، القاهرة ١٩٨٠، ص ٣٠٨

وتفرع هذه الصعوبات حسب "ويلهالم دلتاي" Wilhelm Dilthey (١٨٣٨-١٩١١) إلى مشكلتين: الأولى أن العلوم الإنسانية مازال يعوزها تصور واضح ومتفق عليه عن أهدافها ومناهجها والعلاقات بينهما،إذا ما قورنت بما هو سائد في العلوم الطبيعية،والمشكلة الثانية هي أن العلوم الطبيعية تزداد منزلتها ومكانتها نموا واطرادا حيث توسع في الرأي العام مثلا أعلى للمعرفة لا يتلاءم مع التقدم في العلوم الإنسانية (٢).

وكمحاولة لاستشراف إمكانيات حل مشكلة العلوم الإنسانية،شهد منتصف القرن١٩ الميلادي الرسمي لكثير من فروع العلوم الإنسانية على نفس أسس الابستيمولوجيا العلمية آنذاك،و طبيعة مسلماتها ... هذه الأسس الابستيمولوجية يلخصها و بنورها مبدأ الحتمية الميكانيكية (٣)التي تفيد عمومية القوانين الطبيعية وثبوتها واطرادها فلا تخلف ولا مصادفة(٤)،وكل حدث لابد وان يحدث بالضرورة ويستحيل ألا يحدث،أو ان يحدث سواه(٥)،فنظام الكون ثابت شامل مطرد كل ظاهرة من ظواهره مقيدة بشروط تلزم حدوثها اضطرارا ،أي خاضعة لقانون محدد وهذا هو ما يجعله كونا منتظما و ليس هاوية من الفوضى و العماء ، أي كاوس (٦) .

فقد كانت الحتمية الميكانيكية بعليتها عقيدة العلم الكلاسيكي وموضوع العلماء وعملهم الابستيمولوجي خاصة بعد النجاح الكبير الذي حققه تفسير نيوتن الميكانيكي للكون،فلم يعد أمام الدراسات الإنسانية الا الاسترشاد بالنموذج الحتمي،وهذا ما دعا إليه كل من"**بول هنري هولباخ**" Paul Holbach(١٧٢٣-١٧٨٩)،و"**جان لورون دولامبير**Jean-Baptiste d'Alembert (1717-1783)و**جوليان لامتري** Julien de Lamettrie (١٧٠٩-١٧٥١)والعالم الرياضي"**ماركيز دو كوندرسيه**"(١٧٤٣-١٧٩٤)،حيث أكدوا إمكانية الرياضيات الاجتماعية والفيزياء الاجتماعية...وإن الميتافيزيقيين ضحية الوهم و الخداع،فلا شيء في الطبيعة عشوائي وكل شيء خاضع للقياس،وفي الإجابة عن الأسئلة التي تؤرقنا سيشرق علينا الفجر بنور العلم(٧)،بل إن أصحاب الدراسات الإنسانية خصوصا علم النفس والاجتماع نازعهم الحلم بالظفر بمنزلة تفوق الفيزياء،و ذلك عن طريق إعادة تشكيل البشر والمجتمعات... وبهذا يكون قد ساهم المشروع الكلاسيكي في فتح الطريق أمام الدراسات الإنسانية لتلحق بمسيرة التقدم العلمي،وفتح الآفاق لرؤى ابستيمولوجية جديدة.إلا انها مازالت عاجزة عن بلوغ منزلة تؤهلها للمقارنة الصحيحة مع العلوم الطبيعية.و هذا ما عرف بأزمة العلوم الإنسانية.

---

(١) د. صلاح قنصوة ، الموضوعية في العلوم الانسانية ، دار الثقافة للطباعة و النشر ، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٧٠

(٢) د.يمنى طريف الخولي ، مشكلة العلوم الإنسانية تكوينها و إمكانية حلها، دار قباء للطباعة و النشر،القاهرة ، ص ٥٠ ،ص ٥٩

(٣) د. حسن علي حسن ،مفهوم الاحتمال في فلسفة العلوم المعاصرة،ط١،دار المعارف، القاهرة ،١٩٩٤، ص ٨٠.

(٤) د.محمد عابد الجابري ،مدخل الى فلسفة العلوم ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ،ط٣، ١٩٩٤،ص٤١٦.

(٥) د.محمد عابد الجابري،مدخل إلى فلسفة العلوم ، ص ٤١٦.

(٦) د.يمنى طريف الخولي،مشكلة العلوم الإنسانية ، ص٦١.

وقد ظل هذا التصور الحتمي للكون سائدا حتى أوائل القرن ٢٠ حينما أعلن العالم الألماني هيزنبرغ في العام ١٩٢٦م عن اكتشاف مبدأ "عدم التحديد" والذي يقضي باستحالة معرفة مكان وسرعة الجسيم بشكل دقيق وفي آن واحد،فكلما زادت دقة معرفتنا بمكان الجسيم قلت الدقة في معرفة سرعته،والعكس صحيح ([14])،فقد هز هذا المبدأ العلماء وقلب المفاهيم الفيزيائية رأسا على عقب،ووضع حدا للمعرفة الإنسانية،وادخل الاحتمالات الى عالم الفيزياء،وكان من اثاره نشوء فيزياء الكم([*]) Quantum physics والتي يمثل هذا المبدأ أحد الدعائم الرئيسة لها،وكان من اثاره أيضا أن اهتزت عقيدة الحتمية العلمية،ثم تقدمت نظرية النسبية بتصور للكون يهدم التصور الميكانيكي،ويحطم الإطار المفترض للحتمية(العلية ... الضرورة – اليقين – اطراد الطبيعة ...)،وأصبحت الابستيمولوجيا المعاصرة يلخصها مبدأ اللاحتمية،فحل الترابط الإحصائي بين الأحداث محل الترابط العلي،والاتجاه المحتمل محل الاتجاه الضروري،واحتمالية الحدث محل حتميته، وأصبح التنبؤ العلمي أفضل الترجيحات بما سوف يحدث.([15])كما ان فشل التفسير الميكانيكي للعالم أدى إلى انهيار الأساس العلمي لكل معرفة تركيبية قبلية،وأوضح أن القوانين العلمية هي قوانين تجريبية احتمالية وعشوائية،وليست قوانين ضرورية يفرضها علينا العقل ذاته"([16])،ولم يلبث الخلل إلا قليلا حتى كشف لنا عن ظواهر أخرى لعبت دورا مهما في تصورنا عن مستقبل العلم وبالذات فيما يخص عقيدة الحتمية العلمية،سميت بالظواهر "الفوضوية" نسبة إلى "نظرية الفوضى Chaos theory" ويمثل لكتشاف الظواهر الفوضوية الضربة الثانية والقاضية على عقيدة الحتمية العلمية بعد مبدأ عدم التحديد.

ان نظرية الفوضى هي دراسة وصفية للسلوك الغير منتظم للأنظمة الحتمية"الأنظمة الديناميكية اللاخطية"([17]) في النظم الطبيعية،بحيث تحدث تحولات غير متوقعة بصعب تقصي مساراتها،وقد تم تشبيه هذه العملية في تداعياتها ب "تأثير الفراشة" ،فهي نظرية توضح علاقة توافقية في اتجاه واحد،وتؤكد تسلسلات لأحداث معينة وتتاليها لتنتج أثرا مختلفا في الزمان والمكان،والصفة النوعية والكمية ...، فالأحداث الصغيرة من شأنها أن تنتج كوارث كبيرة غير متوقعة.([18])فنظرية الفوضى تصور وتصف كونا خاضعا لقوانين رياضية فيزيائية أساسية،ولكن بأسلوب يميل إلى

---

[14] . هيزنبرغ ، المشاكل الفلسفية للعلوم النووية ، ص ٧٥

[*] ميكانيكا الكم نظرية فيزيائية حاسمة كتعميم وتصحيح لنظريات نيوتن الكلاسيكية وتمتعها بالحركة الموجية وخاصة على المستوى الذري ودون الذري لتكتسب أهمية في بنائها(وهو مصطلح فيزيائي يستخدم لوصف أصغر كتلة يمكن تقسيم الاشياء إليها ويستخدم للإشارة إلى كميات الطاقة المحددة التي تنبعث بشكل متقطع، وليس بشكل مستمر) كثيرا ما يستخدم مصطلحي فيزياء الكم والنظرية الكمية كمرادفات لميكانيكا الكم.انظر :موقع ويكيبيديا،الموسوعة الحرة http://ar.wikipedia.org/wiki

[15] .ارنست زيبروسكي،مخاطر كوكبنا المضطرب ،ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي،المجلس الأعلى للثقافة،٢٠٠٣،ص ٦٥.

[16] . د. حسين علي حسين ، فلسفة العلم المعاصر و مفهوم الاحتمال ، ص ٨٣.

[17] -Edward Craig : **Routledge Encyclopaedia of philosophy Chaos theory** , vol 2, London and New York press 1998, p 276 .

[18] . ستيفن ولفرام ، نوع جديد من العلم : تطبيقات في العلوم الطبيعية و البيولوجية، عرض صبحي رجب كلية ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة ، ٢٠٠٥ ، ص ٤٢-٤٣.

عدم الانتظام وعدم الثبات،والتعقيد والتشعب وعدم القابلية للتنبؤ والتكرار واليقين،وكذا الحساسية المفرطة للبدايات والحلول الغريبة العاجزة عن تفسيرها ([19])

نستنتج أن التقدم العلمي في مجال الطبيعية أدى إلى ظهور نظريات تحاول تفسير فوضى الظواهر الطبيعية وإخضاعها لقوانين عن طريق "نظرية الفوضى"،وقد مس هذا التحول الأسس الجوهرية للتصور العلمي،فأدى إلى الانتقال من التصور الخطي الذي يؤمن بتنظيم منهجي ثابت تمليه السببية و الحتمية إلى تصور مغاير تماما،تمثل في المجال الديناميكي المتغير والمتعدد الأشكال،غالبا ما تكون تأثيراته وامتداداته غير مرتقبة وغير محددة ،لتتناقض تماما مع المبادئ التي اعتاد عليها الفكر العلمي لمدة طويلة من الزمن.

والمثير للانتباه أن التصور البشري قد تأثر كثيرا بالمنطق الخطي إلى درجة أنه تبناه كمنهج لا مثيل له فأدخله في ميادينه الفكرية والعلمية والانسانية.وعليه فبينما كانت العلوم الإنسانية تواجه عوائق عديدة في محاولة إحراز الدقة التجريبية لتكون في نفس المستوى من العلوم الدقيقة ،هاهي هذه العلوم نفسها تتوصل إلى نتائج أدخلت الفكر العلمي في دوامة من الشك وإعادة النظر في قوانينه الثابتة،([20])فلقد تبين أن الظاهرة الطبيعية غير ثابتة،متغيرة ومتقلبة ولا يمكن التنبؤ بها كما ألفها التصور سابقا.وبما أن الظاهرة الإنسانية هي أصلا ظاهرة ديناميكية متغيرة ومتقلبة وغير مرتقبة،فهي ظاهرة لاخطية متعددة الأشكال والأبعاد ،وهي في ذلك تقترب من مواصفات الظاهرة الطبيعية التي أصبحت خاضعة في تفسيراتها إلى نظرية الفوضى.

هذا ما يدفعنا الى القول ان هذه النظرية تنطبق أكثر على الظواهر الإنسانية لما تمتلكه هذه الأخيرة من خصوصيات متميزة من مبادئ نظرية الفوضى،ونجاح وإثبات هذه النظرية اللاخطية على الظواهر الفيزيائية لدليل قاطع على إمكانية استعمالها في الميادين الاجتماعية لكون العلاقة الاجتماعية أصلا علاقة غير خطية.ويتضح لنا جليا أن في تلك الاكتشافات فوائد ومنافع كبيرة تمكننا من الاقتراب أكثر من الظاهرة الإنسانية وإمكانية ضبط وتحديد موضوع العلوم الإنسانية الذي طالما بات متنوعا ومتناثرا يتقلب ويتأرجح حسب قوة الاستدلالات وتعدد التصريحات والمساهمات الفكرية.ومادامت العلوم الإنسانية تدرس الكائن البشري الذي يتميز بالعقل الإنساني،الذي هو ليس مجرد ذكاء اصطناعي بل انه مزود بميزات فريدة من نوعها تجعله ينفرد بخصوصيات لا يمكن التحكم فيها بصورة خطية وحتمية.فالتصور الإنساني غير مصطنع،وأي عملية تفترض اللجوء إلى نمذجة التصور والفكر يحرض في أعماق العقل ارتدادات وحساسيات من شأنها أن تنتج بصورة غير متوقعة تصرفات وسلوكات متميزة .([21])

إن العقل البشري يخضع إلى ظواهر نفسية بعيدة لا يمكن للمنطق أن يترقبها وأن يراقبها بصفة مطلقة ومحكمة([22])كما أن العقل البشري كعضو اجتماعي يخضع بالضرورة إلى عملية التنشئة الإجتماعية التي تحدد له القيم والقواعد السلوكية المعقدة

---

[19]- سامي خشبة ، **مصطلحات الفكر الحديث** ، ج٢ ، ص١٥٠.

[20]- ارنست زيبروسكي،**مخاطر كوكبنا المضطرب**، ص ٣٩٣.

[21]- J.G. Ganascia,**«l'âme machine», les enjeux de l'intelligence artificielle**,Ed seuil, paris 1990, p 19 .

[22]- J.G. Ganascia , ibid p 209 .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتنظم له الخيار بين المواقف،وأخذ القرار طوال حياته([٢٣]).ويظهر هذا جليا في الاتصالات الشخصية التي يطغى عليها الطابع الوجداني أكثر من الطابع المنطقي،بحيث لا يمكن تصور أن الاتصال عملية شعورية ناجحة،أي تفترض التفاهم التبادل المطلق بين الأطراف المتحاورة .([٢٤])

وهذا مايجعلنا نعتقد أن الظاهرة الإنسانية هي الظاهرة الأكثر صحة علميا لكونها متغيرة ومتقلبة وغير مرتقبة أصلا.وهذا ما دفعنا الى الاقتراب من هذا التصور العلمي الجديد لنؤكد على حقيقتين :

- السعي وراء الاستدلالات الخطية يضعف من حقيقتها العلمية،كما يبعد الفكر والتصور عن حقيقة مسار تطورها ،و قد جاءت الاكتشافات الأخيرة لتبين مدى الصحة العلمية التي تتميز بها الظاهرة الإنسانية .
- يمكن قياس الظاهرة الإنسانية بتقنيات جديدة تنحدر من هذا الأسلوب الجديد الذي توصل إليه الفكر العلمي من خلال التجارب و الاكتشافات التي بينت أن الظواهر الفيزيائية هي في الحقيقة تخضع إلى منطق مخالف و مغاير تماما عن المنطق الخطي الذي تعود عليه سابقا .

وفي الاونة الأخيرة، تكاثرت علامات التقارب بين الثقافتين،بين العلوم الإنسانية والعلوم المضبوطة ولاسيما في مجال محاورة بعض الظواهر الفيزيائية التي تتميز بخصوصيات ديناميكية شبيهة بتلك التي نلاحظها في الظواهر الإنسانية.فقد أدت الاهتمامات العلمية في الميادين الفيزيائية والطبيعية والتقدم الملحوظ في مناهجها وتطبيقاتها إلى التفطن إلى حقائق ذات أدوار جوهرية في سيرورة الظواهر، ولم تكن هذه الالتفاتة مقبولة ومستعابة منذ أولى الإشارات إليها بل استغرقت فترة زمنية طويلة حتى تحقق الإجماع حول ضرورة إعطاء اهتمام أوفر لهذه الحقائق التي تجاهلها العقل العلمي رغم تواجدها في النسق الطبيعي والإنساني .

ومن بين الأسباب التي جعلت المناهج العلمية في العلوم الإنسانية تصطدم بحائط يصعب تخطيه هو ذلك الاقتناع أن كل ماهو موضوعي قائم على استدلالات خطية وحتمية وبالتالي فكل تصور يخرج عن هذا النطاق والمجال السببي يصبح ذاتي وغير علمي.وقد قابل هذا الرأي تصور آخر يتعارض معه جملة وتفصيلا ينص على أن الظواهر الإنسانية موضوع لا يمكن قياسه وضبطه بحسابات دقيقة،واكتفوا بهذا الحد دون تقديم اقتراحات علمية قاطعة،فتعددت التصورات والنماذج حسب اختلاف الانتماء الاديولوجي والفلسفي لكل طرف،فارتبط موضوع العلوم الإنسانية بالعديد من التيارات الفكرية التي لا تعد ولا تحص.وتبقى هذه النماذج والمواضيع العلمية نسبية لكونها جد متأثرة بالتصور الإنساني للظاهرة المدروسة،فكلما كانت الاختلافات حادة كانت الصعوبة كبيرة في تحقيق الاتفاق حول تعريف مشترك.ومن جهة أخرى فإن استقراءنا للواقع يبين أن أفكار مثل اللانظام واللااستقرار،والتأرجح... تنتشر عبر العلوم الاجتماعية، فالمجتمعات منظومات شديدة التعقيد،تتضمن عددا كبيرا من التفرعات

---

[23]- J.G. Ganascia , ibid p 206

[24]- J.H. Beavin, P. Watzlawich . D. Djackson, une logique de la communication, p 47.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمثل في مختلف الثقافات التي تطورت في زمن قصير نسبيا في تاريخ البشرية ،و هذه المنظومات حساسة جدا للتأرجحات .([25])

كما أن التوتر الاجتماعي يظهر في الفضاء الزمكاني المتراجد بين الأطراف المتداخلة ،فحينما تدخل العناصر في تفاعل ينتج عن ذلك قيمة إضافية ثالثة تكون محصورة بين العناصر وليس بداخل العناصر وتمثل هذه القيمة الإضافية " الثالث المشمول "و هي طاقة ثالثة تصدر من تلاقي عناصر فيما بينها،و العلاقة الاجتماعية جد قريبة من هذا التصور إن لم نقل هو نفسه،فالشيء الذي يميز هذه الخاصية في العلاقة انها تمتلك على كثير من الميزات الجوهرية أهمها الاستقلالية النسبية عن حرية وإرادة العناصر ومن هنا ينتج الضبط الذاتي الخارج عن إرادة الأشخاص،أو ما يعرف حاليا بالإعادة المرجعية التي تلعب دورا بارزا في إعادة استعمال الصورة المرجعية للنسق نفسه والتي تمثل فكرة التكيف العضوي([26])وهذه النقطة ذات أهمية مركزية فهي تعني بكل بساطة أن تركيبة النسق مهما كانت درجة تعقيده وحجم تكوينه فهو دائما بشكل صورة طبق الأصل لحقائق مجهرية تشكل الشروط المبدئية لنمو و تطور النسق نفسه،إنها نظرية الفراكتالات .

٢ـالتعقيد و نظرية الفوضى في العلوم الإنسانية

لقد أوضح المتغير المعلوماتي مدى عجز عقل الإنسان على التصدي للتعقد الشديد الذي أصبح السمة الغالبة لكثير من الظواهر الطبيعية والاجتماعية والنفسية....،فالتعقد يظهر بشتى ألوانه:اللايقين واللانتظام واللاقرار واللاصفاء واللاتوازن.فقد تبين أن التعقيد أوالفوضى موجودة في كل مكان:من عمود الدخان المتصاعد من"سيجارة" مشتعلة الذي يتحطم في دوائر جامحة،إلى المياه المتدفقة من الحنفية التي تبدأ بنمط منتظم ثم سرعان ما تتحول إلى عشوائية،كما تظهر في سلوك التجمعات الحيوانية،والاقتصاد والتجارة وحركة الأسواق المالية،وكذا حركة المجتمعات الإنسانية والسياسة.

لقد تركنا القرن١٩ كما يقول **إيليا بريجوجين**(١٩١٧-٢٠٠٣) Ilya Prigogine بعالم يزخر باليقين القاطع يثق ثقة مطلقة في قدرة العلم على حل جميع المشكلات،في حين اتسم القرن٢٠ بعالم يسوده اللايقين الذي خلص العلم من ثقته المفرطة([27])أما القرن الحالي فقد وصفه «ستيفن هوكنج» Stephen Hawking (١٩٤٢-)، عالم الفيزياء النظرية، بأنه قرن التعقد، التعقد الذي أغفلته واختزلته وتجنبته معرفة الماضي مما شوه رؤية الإنسان لواقعه ولذاته وللآخرين.([28])فقد ولى عصر البساطة إلى الأبد،ولا مكان هنا للنظريات العلمية الشاملة والصروح الفلسفية الشامخة،وعلى العلم أن يعيد بناء نفسه بصورة جذرية حتى يتأهل للقائه الحاسم مع التعقد،وعلى الإنسان أن يداوم على تجديد أدوات صناعته للمعرفة من أجل التصدي له.وعليه فنظرية الفوضى بداية فلسفة تدعو للمشاركة الفعالة بين العلماء من مختلف

---

[25] - الیا بریغوجین ،**نظام ینتج عن الشواش** ، ترجمة طاهر بدیع شاهین ، دمشق ٢٠٠٨، ص ٤٠٢.

[26] - د. بویحیاوي ، الخواء الاجتماعي ،٢٠٠٨ ، ص ٤٦.

[27] - الیا بریغوجین ،**نظام ینتج عن الشواش**، ترجمة طاهر بدیع شاهین ، دمشق ٢٠٠٨، ص ٢٠

[28] - ستیفن هوکنج ، **الثقوب السوداء** ،ترجمة د عبد الحلیم منصور ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، ٢٠٠٥ ،ص ٩٧

التخصصات،فالتقسيم التقليدي للعلوم إلى فروع مستقلة وتخصصات متباعدة، يشكل عقبة في طريق التقدم العلمي، ولقد بلغ النجاح مداه عندما تحطمت الحواجز بين العلوم، وبرز مفهوم التطبيق المتبادل للخبرات العلمية، حيث يمكن لكل علم أن يستفيد من الاكتشافات والأطروحات والاختراعات التي تأتي بها العلوم الأخرى وتكتشفها.(٢٩)

كماعمل مديرو البرامج الحكومية المنوط عليها تدبير الموارد اللازمة للبحث العلمي في القوات المسلحة،وكالة المخابرات المركزية،وفي وزارة الطاقة،على توفير مزيد من الاعتمادات لبحوث"الفوضى"،بل واتجهت إلى إنشاء وحدات مالية خاصة لهذا الغرض.فما هي أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الأبحاث وماهي المقاربات التي وضعها العلماء بين نظرية الفوضى و مختلف علوم الإنسان ؟

أولا- نظرية الفوضى و الأدب : الفوضى وما بعد الحداثة

لقيت نظرية الفوضى اهتماما كبيرا في الحقول المعرفية المتنوعة، فقد انتقلت من حقل الرياضيات إلى حقول معرفية أخرى بدءا من الفيزياء وانتهاء بالفلسفة والنقد الأدبي.فبالإضافة إلى تطبيقاتها العلميّة تنبع أهميتها من أنها أصبحت خلال العقود الأخيرة سمة بارزة في كيفية رؤية الكتّاب، كتّاب الأدب، للعالم وما يحكمه من قوانين مرئية وغير مرئية، وما يسوده من أحداث قد لا يبدو لها تفسير ظاهر.

إن أهم ما يميز نظرية الفوضى أن للفوضى قانونا، أي قانونية الفوضى،فنظرية الفوضى تهدف إلى توضيح حقيقة أن تفسير النتائج المعقدة وغير المتوقعة ممكن في الأنظمة عند النظر لبداياتها، فمن الممكن أن يؤدي تغيير بسيط جداً في بداية نظام إلى حدوث نتائج غير متوقعة وأحياناً عنيفة عن طريق التسبب في إطلاق سلسلة أحداث تتنامى أهميتها باستطالة السلسلة(٣٠)، وهذا المنظور يعطي أهمية كبيرة لما في بداية العمل الأدبي من أحداث تؤثر على استمراريته وبالتالي نجاحه أو إقبال القارئ عليه.

وقد بدأ الاهتمام بنظرية الفوضى واحتمال تطبيقاتها في الأدب أولاً مع انتشار مؤلفات تشرح النظريّة من وجهة نظر علمية بحتة مثل كتاب: "نظام ينشأ من الفوضى: الحوار الجديد للإنسان مع الطبيعة Order out of Chaos: Man's New Dialogue with Nature" الذي صدر عام ١٩٨٤، وكتاب: "الفوضى: تصنع علم جديد Chaos: Making a New Science" من تأليف جيمس جليك James Gleick (١٩٥٤-) الذي صدر عام١٩٨٧،وإلى هذا الكتاب يعود الفضل في إخراج هذا "العلم الجديد"من الحيّز الضيق نسبيا للتطبيقات العلمية إلى الفضاء الرحب الذي يشمل العلوم الإنسانية كافّة.ثم تعزّز الاهتمام بالنظرية مع صدور كتاب:"علم ونظام جديد ينبثق من الفوضى"New Science and Order out of Chaos وكتاب"نظرية الفوضى في العلوم الاجتماعية أساسيات Chaos Theory in the Social Sciences: Foundations" الذي صدر عام ١٩٩٦.**فقد بدأت المحاولات لنقل هذه النظرية إلى العربية من خلال الترجمة أومن خلال الكتب التي تحاول العرض لها،ومن**

---

٢٩ - جيمس غليك،**نظرية الفوضى و علم الامتوقع**،ترجمة أحمد مغربي،دار الساقي بالاشتراك مع مركز الدراسات للترجمة،الطبعة الاولى ٢٠٠٨،ص٢٢-٢٣.

٣٠ ستيفن ولفرام،**نوع جديد من العلم:تطبيقات في العلوم الطبيعية والبيولوجية**،عرض صبحي رجب عطا الله،المكتبة الأكاديمية،القاهرة،٢٠٠٥،ص٢٢-٢٣.

هذه الكتب«نظرية الفوضى والأدب:مابعد مابعد الحداثة»لشريفة محمد العبودي الذي صدر مؤخرا عن سلسلة كتاب الرياض التي تصدر في السعودية.

تنطلق نظرية الفوضى في الأدب من النص الأدبي،إذ تحاول ان تطور إستراتيجيات لإيجاد معنى لما يبدو فوضويا غير واضح في النص،وقد ركزت النظرية على استهلال النص تبعا لاهتمام النظرية بانطلاقة البداية، واستحسنت التعامل مع تلك النصوص التي تتصف بالتعقيد والتركيب([31])،لقد تناولت شريفة العبودي نظرية الفوضى في عدد من المجالات المعرفية،كالفلسفة والتحليل النفسي،لتشير بذلك إلى شمولية النظرية والمسار الذي وصلت له العلوم في العقود الاخيرة إذ تحقق الدمج بين العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية([32])،وهو توجه ملحوظ منذ مرحلة الحداثة، إذ كانت البنيوية تنحو منحى تجريبيا واضحا.

وتنطلق العبودي من خلال كتاب«ألف ليلة وليلة»،إذ تجده من اكثر الكتب صلاحية للتطبيق،وإن استطاعت أن تتوصل إلى المفاصل الحكائية لتطبيق مبادئ النظرية إلا أنها تبدو ساعية إلى إسقاط المصطلحات التي رسمتها في الكتاب اكثر من كونها تسعى إلى دراسة الحكاية([33])وترى العبودي أن شهرزاد تدخل في فوضى قصة شهريار وشقيقه شاه زمان،حيث تواجه الغموض،فلا تعرف إن كانت ستنجح أو ستفشل في اتقاء الموت،فتدخل عن طريق خلق نوع من الترتيب في فوضى حياة شهريار.([34])

وتقوم صلة نظرية الفوضى بالأدب على أن هناك تشابها قويا بين الفوضى كمفهوم وبين مابعد الحداثة كمفهوم إلى درجة اعتبار المفهومين نموذجين متوازيين زمنيا ونظريا،كما تقوم الصلة أيضا على أن الانظمة الاجتماعية والخيالية التي تتناولها الدراسات الإنسانية قابلة للمقارنة بالانظمة التي تدرسها العلوم.([35]) فمكونات العلم المادي التي كان يحاول جاهداً فرضها على نفسه وعلى العالم- بعد مفرزات الحروب العالمية الأولى والثانية والباردة وغيرها - لم تعد تنفع كآليات تفسر الأحداث والسلوكيات وتعمل على وضع حد لها،فعمت الفوضى الفكرية ، وابتدأ الأدب، مرآة الشعوب يعكس الحالة العقلية والنفسية لإنسان القرن ٢٠ الذي فقد إيمانه بالعلم كأداة لتفسير الكون بدعوى الحرية والتحرر، وأنتج إنسان ذلك الزمان أدباً يتملص من القوانين وتختفي الفوارق والضوابط فيه. فساح الشعر واختلط بالنثر بعد أن فقد قوامه ومقوماته، وتعملقت القصة تارة لتدخل في الرواية، أو انكمشت تارة أخرى لتأخذ شكل خاطرة في بضع كلمات.

ثم أتت نظرية الفوضى لتوضح حقيقة ما بدا وكأنه فوضى وهو ليس كذلك،إنما هناك أنظمة تتحكم بدقة بكل ما يبدو وكأنه فوضى، وملاحظة وجود الأنظمة وحتى توقعها ممكنة عند النظر بدقة إلى انطلاقة البداية، فالبداية هي الشرارة التي

---

[31] - د.شفيق طه النوباني ، جريدة الرأي، مؤسسة الصحفية الأردنية تاريخ النشر يناير ٢٠١٢

[32] - د.شريفة محمد العبودي،نظرية الفوضى والأدب :ما بعد ما بعد الحداثة،سلسلة كتاب الرياض،السعودية، ٢٠١٠ ،ص٣٥.

[33] - د.شفيق طه النوباني ، جريدة الرأي، مؤسسة الصحفية الأردنية تاريخ النشر يناير ٢٠١٢

[34] - د.شريفة محمد العبودي ، نظرية الفوضى والأدب :ما بعد ما بعد الحداثة ، ص٦٣.

[35] - سنان أحمد حقي، نظرية الفوضى –توطئة ،مجلة أدب ق ٢٠١٢.

تحيي نظاماً ما أو عملاً ما وتحدد تأثيره، فمفاهيم خاصة بالنظرية مثل "اللاخطيّة" و"التعقيد "و"الحتميّة" و"اللا توقّع" تشرح العلاقة بين العقل الواحد (عقل الأديب هنا)وبين ما يحيط به سواء كان إنسانا آخر أو عملا آخر، سواء كان حقيقيا أو خياليا. أي مختلف العلاقات المتداخلة التي تقع ضمن التجربة الإنسانيّة([٣٦])، لقد أعادت نظرية الفوضى للأنسنة humanism * اعتبارها بعد طول غياب، فالإنسان فاعل مؤثر، وتأثيره يحدده تفاعله مع محيطه، لقد بدأ يظهر تغيير ملموس في كيفية تناول كتّاب الأدب للوجود ومكان الإنسان وتأثيره في ذلك الوجود ([٣٧]).

والعلاقة بين عقل الكاتب وعمله هي في صلب تطبيقات نظرية الفوضى، التي تشغل قارئ العمل الأدبي،ففي مقال له بعنوان "نظرية الفوضى" يتساءل الناقد الأمريكي جون بارث John Barth (١٩٣٠-) قائلاً: لماذا يجب أن يهتم الكاتب بنظرية الفوضى؟ ثم يجيب:لسببين،الأول لكي يعطي الكاتب أهمية بالغة ليس لشكل عمله الأدبي ولغته فقط ولكن لجميع مكوناته من حبكة وبؤرة تركيز وتطور...،فهذه المكونات تصبح كلها مؤشرات لما يعنيه العمل.الثاني:أن الكاتب لا يكتب عملاً يتصف بالجدّة بمجرد أن يكتب عن أمور جديدة،فالجِدّة تعني أن يكتب الكاتب تبعا لأحدث أساليب الكتابة([٣٨])وأحدث أساليب الكتابة الآن هي تلك التي تضع نظرية الفوضى وسماتها الرئيسية التي ذكرتها كاثرين هيلز Katherine Hayles(١٩٤٣) في كتابها " قيد الفوضى Chaos Bound"في الحسبان،فالعمل الأدبي القيّم يعكس الخصائص التالية :([٣٩])

- أن يكون هناك تركيز شديد على مستهل العمل، وهذا يتضح في الشعر ثم في القصة القصيرة بشكل خاص حيث يضع الكاتب تركيزه على السطر أو الأسطر الأولى من العمل، والتي يكون لها تأثير قوي وملموس على تطور العمل ككل .
- ألّا يكون خطياً، فمن المحبذ أن تكون المسببات ونتائجها في العمل الأدبي شديدة التفاوت، وهذا أحد مظاهر ما يعرف بتأثير الفراشة المعروف في نظرية الفوضى، وتطبيق هذا في الأدب يدعو الكاتب إلى تعليق أهمية شديدة لانطلاقة البداية، فيجعلها شرارة أو بداية لأحداث تنمو وتتضخم مع تطور العمل الأدبي .
- أن يتصف بالتعقيد والتركيب مما يجعل أبعاده غير متوقعة،فالديناميكية غير الخطيّة تفترض وجود اختلاف ليس في الحجم فقط إنما أيضاً في القيمة النوعيّة لهذا الحجم بين النظم الخطيّة والنظم غير الخطيّة .
- أن تكون في العمل الأدبي جواذب، أو ما يدعى بجزر الاستقرار، حيث يتغيّر التركيز من وحدات العمل ليعود إلى نقطة الجذب. ففي الديناميكية غير الخطيّة يبدو

---

[٣٦] - د.شريفة محمد العبودي ، نظرية الفوضى والأدب :ما بعد ما بعد الحداثة ، ص١٢٢.

* والمقصود باتجاهات الأنسنة هنا هو المجال الفكري الذي تتم من خلاله المعالجة من خلال الكتابة للإنسان ذاته وللمعاني الأنسانية المرتبطة بوجوده في معزل عن الظاهرة الفيزيائية لوجود الإنسان على سطح الأرض.

[٣٧] - د.شريفة محمد العبودي ، نظرية الفوضى والأدب :ما بعد ما بعد الحداثة،ص١٢٣.

[٣٨] - د.شريفة محمد العبودي،نظرية الفوضى ،مجلة الركن الأخضر ، ٢٠١٠.

[٣٩] - Katherine Hayles، **Chaos Bound: Orderly Disorder in Contemporary Literature and Science**, Cornell University Press, 2008, p 235.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسار كدوّامات داخل دوّامات داخل دوّامات تتكرّر ولكنها لا تتماثل بالضبط أبداً، والتغييرات البسيطة بين تلك الدوّامات يمكن أن تتسبب في حدوث تغييرات هائلة تطيح بمسار العمل إلى اتجاهات جديدة .

- أن يكون في النصوص المعقدة نوع من تبادل المنافع بين مكوناته، فالمخرجات المنبثقة عن تشعب ما تعود هي ذاتها إلى النص كمدخلات تعزز بنيانه، ولذا يعتبر التشعب مصدرا إبداعياً يعود بالنفع ليس فقط على النص ذاته إنما أيضاً على كاتب النص الذي تزداد خبرته بتنامي العمل الأدبي مما يجعله قادراً على خلق المزيد من التشعب للنص .

إن الغاية العلميّة من نظرية الفوضى هي تطوير استراتيجيات وتقنيات تهدف إلى إيجاد معنى لتلك المعلومات التي تبدو فوضوية أو مشوشة، ولكن الأستاذة الدكتورة هيلز في كتابها تنظر إلى علم الفوضى من ناحية صلته بالإبداع بوجه عام فتذكر وجود فرعين لعلم الفوضى، الأول يرى الفوضى مادة يتشكل منها الترتيب وتكون مشاركة له بدلاً من أن تكون (أي الفوضى) مضادة للترتيب أي أن: "الترتيب نتيجة للفوضى". وهذا الفرع يتعلق بالفلسفة .والفرع الثاني من علم الفوضى يتعلق بإيجاد انماط من الترتيب داخل الفوضى، وهو الذي يحقق نتائج بدلا من اعتماده على الفلسفة([40])، وتؤكد هيلز على أن صلة علم الفوضى بما بعد الحداثة تقوم على الفرع الثاني الذي يحتفل بالتعقيد وعدم الوضوح في العمل الأدبي، ويعتبره مساهماً في عولمة التراكيب الإبداعية ولكنه في نفس الوقت يعتبر مضاداً لعولمتها.

ثانيا- نظرية الفوضى و الإعلام

اهتم العديد من العلماء والباحثين في مجال الصّورة والتلفزيون،ومجال الصّناعات الإعلاميّة والثقافيّة، ومجال الميديا والأخلاق،بدراسة حقيقة التناهج بين العلوم سيما في ما يتعلّق بالتواصل بين الإعلام والاتصال والحقول المعرفيّة الأخرى الهندسيّة والرياضيّة والاجتماعيّة والفلسفيّة.ولعل أهم نظرية برزت في الحقل المعرفي المعاصر وتركت تأثيرا في المجال الإعلامي هي نظرية الفوضى فما علاقتها بالإعلام؟

١- نظرية الفوضى في لباسها الميدياتيكي

صدر عن دار سحر للنشر بتونس مؤلّف جديد **لعبد الله الحيدري** تحت عنوان : "الإعلام الجديد النظام والفوضى"، كتاب ورد في ثلاثة فصول، درست وناقشت جميعها موضوع الإعلام الجديد في أبعاده النظريّة والسّوسيولوجيّة،حيث اهتمّ فيه صاحبه بتحليل وتفسير حقيقة الإعلام الجديد من زوايا فكرية ومعرفيّة مختلفة،فالسّمة البارزة في هذا الكتاب تتمثّل في مقاربة الظّاهرة الإعلاميّة من منطلقات مختلفة، تُراوح بين المقاربة الفيزيائيّة والمقاربة الفلسفيّة، والمقاربة الأخلاقيّة، لتقيم الدليل على أنّ الظّواهر الإعلاميّة عموماً، إنّما يتسنّى فهمها ودراستها بالعودة إلى استثمار ما في الحقول المعرفيّة الأخرى من مبادئ كليّة،كما تميّزت الفصول الثلاثة للكتاب بتفكيك بنية

[40]-Katherine Hayles، Chaos Bound: Orderly Disorder in Contemporary Literature and Science, p٢٧٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاتصال الجديدة وتحليلها تحليلا ترافقه شواهد ممّا يجري في الأقطار العربيّة من تغيّرات سياسيّة بالخصوص.

٢- نظام الإعلام الجديد ، نظام تسكنه الفوضى

يرى الحيدري أنّ هذا العالم الجديد، على ما فيه من حفريّات تكنولوجيّة عميقة بدأت تغيّر من القيم والسّلوك، فهو لا يخلو من وجود حالة فوضى مزدوجة: فوضى في السماء يجسّدها الحضور المتنامي لأقمار الاتصالات، والأقمار المتحرّكة وأقمار المراقبة والرّصد، وفوضى على الأرض تتلوها الفضائيات ويغذّي أطوارها الفضاء اللامتناهي لشبكة الإنترنت.([٤١])والأخطر من ذلك كلّه،فوضى المفاهيم والمصطلحات المتزاحمة مع فيضان من التدني اللّغوي أدّى إلى تراجع مقاييس الجودة والإبداع.كما استعار الحيدري مفهوم الفوضى من لورنزLorenz ليوظّفه في مجال العلوم الإنسانيّة،اذ يبيّن أنّ ما يحدث من تفاعلات متقلّبة في مجال الإعلام والاتصال الحديث،لا يختلف كثيرا عمّا يحدث في مجالات أخرى كمجال الرّصد الجوي مثلاً،لاعتبار المجالين نظامين ديناميكيين يسكنهما الاضطراب والفوضى،كما يرى الحديري أن الاستعارة من هذا القبيل تقليد قديم في تخصّصه،حيث يقول:"ألم تكن قياسات الخبر وقيمه الانتروبيّة مستعارة من الديناميكيّة الحراريّة؟ ألم يكن التشويش الذي نقصد به، في التواصل، الضوضاء التي تصيب المعاني في الرّسائل الإعلاميّة، مستعارا من النظريّة الرّياضيّة للمعلومات ؟ فالفوضى في مضمارنا هي تلك السلوكيات العشوائيّة غير القابلة للقياس الدقيق، والتي لا يمكن احتواؤها بفعل تعديل يحدث داخل النّظام ([٤٢]).

فالفوضى، مثلما أشرنا في ما سبق، ليست من طبيعة افتقار النظام لقوانين العمل والنشاط، ولا هيّ متصلة بتشابك الواقعي والافتراضي في هندسة النظام الرّقمي الجديد،إنّما هيّ وليدة ظاهرة كميّة،الأولى من نوعها في تاريخ التواصل البشري، نفسّرها بالعدد الهائل للمستخدمين لوسائط الإعلام والاتصال، استخدام يعبر كلّ الاتجاهات:أكثر من مليار مستخدم للإنترنت وما يزيد عن مليارين مشترك في خدمات الهاتف الجوّال،ينتجون ويتبادلون المعلومات بمختلف أصنافها،ويسهمون في التأثير في البناء الاجتماعي للسّلوك.([٤٣]) ان ما ينسحب على الظواهر الفيزيائيّة من قوانين نراه ينسحب كذلك على الظواهر الاجتماعية في بعدها الإعلامي والاتصالي، فالظواهر الاجتماعيّة-في حضور تقنية اتصاليّة لاخطيّة متطوّرة-تكتسي من التركيب والتعقيد ما تختصّ به النظم الفيزيائيّة الكبرى.فالمشكل الرّئيسي في سائر النظم، كامن في وجود معرفة غير مكتملة بالمعطيات البدئيّة،فالإعلام الجديد يظلّ بعيدا عن السيطرة،ويبقى من الصّعب التنبؤ بتغيّراته واتجاهاته،ولا يمكن إلا أن يشكّل نظاما ديناميكيا مركّبا تسكنه الفوضى([٤٤]).

---

[٤١]- د عبد الله الحيدري،**الإعلام الجديد: النظام والفوضى**، دار سحر للنشر، تونس، كانون الثاني ٢٠١٢، ص١٠.

[٤٢]- د عبد الله الحيدري، **الإعلام الجديد: النظام والفوضى** ، ص١٠١.

[٤٣]- روني عبد النور ،**نظام الاعلام الجديد**،صحيفة الوسط البحرينية ، العدد ٣٤٦١ ، ٢٨ فبراير ٢٠١٣م

[٤٤]- د عبد الله الحيدري،**الإعلام الجديد: النظام والفوضى** ، ص١٢٢.

إن علوم الاتصال والمعلوماتية ليست سوى دليلا ساطعا على صحة التلاقح بين حقول معرفية كان يعتقد أنها معزولة بعضها عن بعض([45])،وفي ذلك تكمن خاصية الفكر العلمي اليوم الذي ينزع إلى كسر الحواجز المقامة اعتباطيا وتحت تأثيرات فلسفية مختلفة بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية.فالبيئة الجديدة المسمّاة اليوم بالإعلام الجديد مهيّأة لحدوث الفوضى لاعتبارها نظاما دينامكيا معقّدا تحدث داخلها سلوكيات غير منتظمة وغير مستقرّة ، فالفوضى حينئذ تظلّ خاصيّة من خصائص هذه البيئة الحتميّة اللاّخطيّة، التي أصبح من العسير التحكّم في ديناميكيتها والتنبّؤ بحالاتها المستقبليّة.

٣- الإعلام الجديد، والثورات العربيّة

يبرز الحيدري مسألة بالغة الأهميّة عن الثورات العربيّة مشيرا إلى خطاب التقنيين الذين يرون في المواقع الاجتماعيّة السبب الرّئيسي في اندلاع الثورات العربيّة،ويذكر في هذا الصّدد..." :إنّ ثورة تونس،كما هوّ حال الثورات التي تلتها،انبثقت من وعي الأفراد بواقعهم أوّلا،ثمّ تشكلت مفاصلها في فضاء الويب،واشتدت بالتفاعل والتكرار والتداول، والتغلغل السريع للأفكار والمعلومات في الأوساط الاجتماعيّة المختلفة على نحو يشبه إلى حدّ مّا ما يعرف في الرّياضيات بهندسة شجرة الاختيار ،ولكن بشكل غير خطّي، ممّا يجعل تطوّر الأحداث أمرا في غاية التركيب والتعقيد يصعب التكهّن بنتائجه والتحكّم حتى في مساره، إنّها الفوضى."([46]).

ووجه الفوضى،أنّ إنتاج المعلومات وتناقلها وتبادلها بما يسمى سرعة الإبحار الخاطفة،ما إن يستمرّ في الزمن بالسّرعة تلك، يأخذ حجمه منحى النمو المتزايد،بوتيرة غير قابلة للحساب تحمل في طبقاتها موجات من المعاني والمستويات البلاغية التي لا حصر لها، مفرزة، في الآن ذاته، المُحتمَل وغير المُحتمَل في نطاق ما يعرف بالحساسيّة للشروط الأولية...ويرى الحيدري أننا لو أمعنا النظر في الحدث ذاته(حدث إحراق البوعزيزي لنفسه)،لأرجعناه استنادا إلى الشيفرات الاجتماعيّة المتضمّنة لمعنى(إحراق النفس)،ضربا من ضروب الانتحار ،وهو كذلك،ولكن بالعودة إلى السّياق كعنصر أساسي لفهم الموضوع،يتغيّر فكّ الشيفرة مولّدا حالة استثنائيّة تستدعي وقفة تأمّل في "الذات" الجديدة التي رسمها "البوعزيزي" والتي كان تشفيرها مطابقا كليّا للمعنى المقصود عند المشفّر،لأنّ "البوعزيزي"،عندما أضرم النار في نفسه إنّما كان يدوّن بجسده أطوار الظلم والقهر الجاثمة في الواقع الاجتماعي،وهي أبعد من أن يستوعبها تعبير لساني أو تدوين إلكتروني.ولمّا كان التدوين بالجسد أبلغ في دلالاته من التدوين اللّساني، فإنّه كان أقرب إلى منح الأفراد الاجتماعيين هويّة اجتماعيّة قامت على قواعدها ثورة تونس وما تلاها من ثورات أخرى ممّا يفيد أنّ الثّورة في تونس،كما في مصر وسائر الأقطار العربيّة الأخرى لم تنبثق من رحم المواقع الاجتماعيّة كما صوّرها الخطاب التقنوي إنّما دخلت بنيتها حيّز الوجود من تركيب دلالي،لساني وغير لساني تطابق تشفيره مع مقاصد المشفّر.

---

[45] - محرز الحمدي ،**الفكر و الحياة في فلسفة العلوم الإنسانية** ،التنوير للطباعة و النشر ،لبنان ،٢٠١٠،ص ١٤.

[46] - د.عبد الله الحيدري،**الإعلام الجديد: النظام والفوضى** ، ص١٤٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثالثا- نظرية الفوضى و الاقتصاد

لقد تأثر الجانب الاقتصادي بنظرية الفوضى،اذ ان جائزة نوبل في الاقتصاد لم تسلم نتيجة الأبحاث المتميزة في أزمة الائتمان العالمية التي أدت إلى تهديد كساد كبير للاقتصاد الأمريكي،بل كانت نتيجة إعادة النظر في أبحاث الاقتصاديين الأمريكيين ذاتهم.فقد دعا عدد من الخبراء أن تمنح الجائزة مستقبلا إلى الأبحاث المتميزة في نظريات تثبيت استقرار الاقتصاد أو نظريات الفوضى الجديدة التي تعنى بدراسة ظواهر الاضطراب واللانظام واللاخطية في مختلف المجالات كالمناخ وأجهزة جسم الإنسان والسلوك،فضلا عن الاقتصاد والتجارة وحركة الأسواق المالية، و فيما يلي أهم إرهاصات نظرية الفوضى في الاقتصاد:

١ - إقتصاد الفوضى

يعتبر مفهوم"اقتصاد الفوضى"مفهوما حديثا نسبياً في الأدبيات الاقتصادية،ومقاربته تبقى محدودة،كماانّ انعكاسات اقتصاد الفوضى تبدو ثقيلة على المؤشرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية العامة خصوصاً في عصر العولمة فنجد أن هناك محاولات نظرية جدّية تسعى إلى وضع إطار مقبول لمفهوم الفوضى،ومن هذه المحاولات: Laszlo Christopher et Laugel Jean François وفيها أنّ عبارة فوضى يقصد بها، تقنياً، الحالة الخاصة لنظام يتّصف بسيرة سلوك كالآتي:([47])

- لا يتردد أبدا ويبدو شارداً وضالاً.
- له علاقة ارتباط حسّاس، لكنّه ليس، أقلّ تنظيماً من سواه أو خاضعاً لحتمية غير متوقعة.

ويضيف لازلو كريستوفر، أن الارتباط الحسّاس إزاء الشروط الأساسية لقيام هذه المتغيرات يمكن أن يؤدي إلى نتائج واسعة ومتعارضة، أمّا الحتمية غير المتوقعة فتعني أن أيّ نموذج ولو كامل من أنظمة الفوضى يمكن أن يفضي إلى نتائج غير متوقعة.([48]) ويلاحظ في هذا التصنيف أنّ "الفوضى ليست البلبة أو الإضطراب حيث أنّ "الفوضى" يمكن أن تكون منظّمة وإن ظلّت غير مستقرة أو غير واضحة،وليس "اقتصاد الفوضى" ما بات يعرف باسم الاقتصاد الهامشي أو الاقتصاد الموازي، فهذا الأخير يتضمّن نشاطات غير منتظمة لكن أحياناً منظّمة،بمعنى أنّها تشمل مؤسسات تتعاطى الإنتاج السلعي أو الخدماتي المشروع إلاّ أنها عير مسجلة.لكن قسماً كبيراً من النشاطات الهامشية مقبول أخلاقيا واقتصاديا بل ان ثمة دولاً عديدة تشجع هذه النشاطات وترعاها أو تغضّ نظر الرقابة والملاحقة عنها في صورة من صور الدعم ([49]) نظراً لما لها من انعكاسات إيجابية اقتصادياً واجتماعياً.

وعملياً فإنّ "اقتصاد الفوضى" ليس "الاقتصاد الموازي" أو الهامشي، لكن يمكن أن يلتقي، في بعض وجوهه مع الاقتصاد السرّي أو الأسود،و يمكن أن يتضمّن اقتصاد الفساد الذي يقصد به العمليات التي يقوم بها بعض رجال السلطة وسياسيون وإداريون

---

[47]- Laszlo C. et Laugel J.F, **L'économie du Chaos**, Ed. D'Organisation. Paris, 1998 page 50

[48]- Ibid.p51.

[49]- Gourevitch J.P., **l'économie informelle,** ED le préaux clercs, Paris 2002, **p96.**

لجني أرباح وعمولات غير مشروعة.([50]) وغالباً ما يترافق بعض النشاطات غير المشروعة مع نشاطات أخرى مشروعة على سبيل التغطية أو على سبيل الترويج، وهو ما يندرج تحت لواء عمليات تبييض الأموال، كما تترافق أحياناً كثيرة مع السعي إلى تدعيم موقع سياسي أو اجتماعي (أو"رياضي" أو"ثقافي") للقائمين بهذه النشاطات والتجارب في هذا الشأن كثيرة وعديدة.وقد تطوّر مفهوم هذا الاقتصاد وحجمه جنباً إلى جنب مع تطوّر النشاطات الاقتصادية ودور الدولة والشركات في المجتمع، وتبعاً لذلك يحاول الباحثون محاولات تحديد أوضح للمتغيرات التي تدخل في معادلاته . ويبلغ الأمر أن بعض علماء الرياضيات الصينيين تقدّموا اليوم في بناء نظرية قياس لهذه المتغيرات ([51]).

٢ـ تطوّر الفوضى في الدولة :

على الرغم من كون مفهوم"اقتصاد الفوضى"مفهوما حديثاًنسبياً،الا انه عميق في التاريخ،اذ ارتبط بشكل مباشر بعوامل جيوسياسية،اجتماعية،اقتصادية مختلفة،ولعل ابرز تلك العوامل نشأة النظام الرأسمالي مع مارافقه من حرّيات اقتصادية واجتماعية([52])وانفتاح الاسواق واتساع حركة التجارة الدولية ([53]). فالموجة الواضحة الأولى من "اقتصاد الفوضى" ظهرت من القرن١٨ وإلى مطلع القرن٢٠مع نشوء الرأسمالية الحادة ومظاهر الاستعمار العسكري والاقتصادي وتعدد الحروب والفتوحات...شهدت عمليات هذا الاقتصاد نوعاً من التراجع في النصف الأول من القرن٢٠ وحتى السبعينات من هذا القرن تقريباً على الرغم من أن حالات عدة ظلّت تسجّل في ما بات يعرف بـ" العالم الثالث تحديداً" وعلى هامش الحروب والثورات، بما فيه الثورة الاشتراكية.لكن واعتباراً من السبعينات بدأت بعض التغييرات أبرزها إطلاق سياسات الخوصصة،حصول الصدمة النفطية الأولى والثانية والصفقات الضخمة التي رافقتها عمليات الإعمار خصوصاً للبنية التحتية أولاً ثم في دول غربية(وشرقية لاحقاً).إلى نظام رأسمالي أكثر تحرراً، وانفجار الإتحاد السوفياتي ومنظومته الشرقية،ثم اشتعال الثورة التكنولوجية والإلكترونية و(الرقمية) ومعها العولمة المفتوحة اعتباراً من التسعينات.

وبلغت الأزمة مستويات عالية مطلع الألفية الثالثة في مختلف الدول،وعليه من العبث التصوّر أنّ الفساد وسائر اصناف "اقتصاد الفوضى"، هي فقط إنتاج عالم ثالثي.اقليس الفساد أساساً عمل شركاء منهم،حتماً طرف من العالم الأخر،العالم" المتقدّم" أو النامي،ثم أليست الشركات الكبرى العابرة هي التي تتولّى المقاولات وسائر الصفقات في الدول الفقيرة وتدفع في مقابل هذه الصفقات عمولات غالبا ما تحددها هي؟ ثم أليست أنظمة العالم الثالث جزءاً من أدوات السيطرة لدول نافذة كبرى أو لشركات كبرى؟ ([54])

---

[50] ـ د.جورج فرم ،**الفوضى الاقتصادية العالمية الجديدة، جذور إخفاق التنمية**، دار الطليعة، بيروت،١٩٩٤ ، ص١٧٥

[51] ـ د.غسان الشوق ،**اقتصاد الفوضى**، مجلة الجيش اللبنانية ،العدد ٣٢٣ ، ٢٠١١.

[52] ـ د.غسان الشوق، **"جيو سياسية" الفوضى** ، مجلة الجيش اللبنانية، العدد ٣٢٣، ٢٠١١

[53] ـ د.جورج فرم ،**الفوضى الاقتصادية العالمية الجديدة**،مرجع سابق ،ص ٢٠ و ما يليها.

[54] -A. Postel-Vinay : **Les drames du tiers monde sont-elles fatales ?** Géopolitique. Edition 16, Janvier 1998.p112.

ما نستنتجه أنه كلما ازدادت وسائل الاتصال أصبح المجتمع أكثر تفاعلا،وكلما ازداد التداخل والتواصل بين المؤسسات الاقتصادية كلما جعلها أكثر عرضه لأن تتأثر ببعضها البعض، وأصبح لازماً على الاقتصاديين فهم تلك التأثيرات المتبادلة بين المؤسسات الاقتصادية،فالجيل القادم من وسائل الاتصال وتطبيقات الإنترنت هي ما سيحدد القوة التي سيبلغها التفاعل الاجتماعي والاقتصادي في تفسير ظاهرة تذبذب حركات البورصة في الأوساط الاقتصادية والتجارية. كما أن قصور نظريات الاقتصاد الغربي في مواجهة التغيرات السياسية-الاقتصادية على المسرح الدولي، خلال الأزمة الاقتصادية التي شهدها العالم مؤخرا،خاصة بالنسبة لتأمين مصادر الطاقة وما شهده العالم من خلال أزمة أسعار البترول في عام ٢٠٠٨، وفشل الأنظمة الاقتصادية والسياسية العالمية في التنبؤ المبكر بها، ترجع إلى عدم الاهتمام الكافي بدراسة ظواهر الاضطراب والاختلال واللانظام واللاخطية المتعلقة بالاقتصاد والتجارة وحركة الأسواق المالية و كذا عدم تحديد أوضح للمتغيرات التي تدخل في معادلاتها .

٣-الفوضى و التنبؤ في الاقتصاد

إذا أردنا أن نقوم بتحليل كمي للظاهرة المالية،فإننا سنصطدم فورا بحقيقة أن الدورات والتقلبات الاقتصادية تحدث على خلفية من التطور التاريخي باتجاه وحيد، فالدورات الاقتصادية لها طابعها التاريخي، كل منها مختلف،فلا نشاهد تكرارا رتيبا لنفس الظاهرة الديناميكية وإذا حاولنا إعطاء تفسير ديناميكي للظواهر الاقتصادية نلاحظ أن قيمتها التنبؤية محدودة،فلا يمكن تحليل الاقتصاد بطريقة مقنعة كمنظومة ديناميكية بسيطة، إذ أن مزاوجة اقتصاديات محلية مختلفة مثلا قد تنتج تطورا زمنيا معقدا وشواشيا يمكن أن يؤدي إلى اهتزازات اقتصادية غير متحكم بها .و لهذا يسعى الاقتصاديون إلى تفسير المنظومات الاقتصادية وفق تطورها الزمني المعقد وذلك انطلاقا من نظرية الفوضى وتقدمها التكنولوجي للتعبير عن هذا التعقيد.فالمعاهدات الاقتصادية تبحث بالتفصيل أوضاع التوازن بين العوامل الاقتصادية القادرة على التنبؤ بدقة المستقبل،ويمكن أن تعطي هذه المعاهدات الانطباع أن وظيفة المشرعين والرسميين هي إيجاد و تحقيق توازن يكون لصالح المجتمع،ولكن أمثلة الفوضى والشواش في الفيزياء بينت لنا أن الأوضاع الديناميكية بدلا من أن تؤدي إلى توازن، تؤدي إلى تطور زمني شواشي لا يمكن توقعه.(**)لذلك على المشرعين أن يواجهوا احتمال أن تؤدي قراراتهم إلى نتائج قد تكون كارثية،والتي يسميها الاقتصاديون بالصدمات،إن تعقد الاقتصاديات المعاصرة يشجع تصرفات شواشية كهذه، و هذا ما يجعلنا نستنتج أن الاقتصاد و المال يقدمان أمثلة على الفوضى و اللاتنبئية .

رابعا- نظرية الفوضى والسياسة

أما على المستوى السياسي والتفكير الإستراتيجي فقد برزت نظرية"الفوضى الخلاقة"او "الفوضى البناءة" وهي أحد ابرز حقول تطبيق التفكير الإستراتيجي في ضبط الصراعات والتحكم بها، واستتبعت لاحقاً بندوات حول «مشارف القرن الحادي

** ، دافيد رويل ، المصادفة و الشواش ، ترجمة طاهر شاهين ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ٢٠٠٦، ص ١١٥

والعشرين» في الجامعات الأوروبية.والمعروف عن هذه النظرية أنها وجدت ديناميكياتها الفعلية بعد زلزال ١١/ ٢٠٠١ وهي تقوم على فلسفة سياسية تفترض وجود خطر داهم من عدو مجهول يهدّد الأمن القومي الأميركي في كل لحظة، كما تقوم على افتراض ألا يكون التهديد بالضرورة حاصلاً بالفعل من دولة أو من منظمة إرهابية لكي تخاض ضده الحرب الوقائية، وإنما يكفي أن يتم تصوُّره من جانب مراكز التخطيط الإستراتيجي في البيت الأبيض والبنتاغون للمبادرة إلى تلك الحرب([٥٦]).

و قد صدر مؤخرا عن دار"المحجة البيضاء" ببيروت كتاب جديد بعنوان " الفوضى الخلاقة " للكاتب العراقي **بهاء الدين الخاقاني**، بحيث يتناول الكتاب استراتيجية السياسة الخارجية لمائة عام قادمة مع التركيز على الواقع العربي،ويقدم الكتاب رؤية تحليلية واضحة لكيفية صناعة القرار الأمريكي عن طريق مراكز الابحاث والقراءات الحديثة لتطورات أنظمة الحكم في العالم.كما يقدم لنا بهاء الدين الخاقاني تحليلا لإستراتيجية ما يعرف بالتفكيك والتحليل، ثم يقدم استعراضا لما جرى في العراق، مُسجلا شهادة واقعية تؤكد أن السياسة الخارجية تجيد قراءة الأحداث وتضع سيناريوهات لكافة التصورات الخاصة بالشعوب([٥٧]).وينبغي الإشارة إلى أن نظرية الفوضى الخلاقة جاءت تلبية لحاجة الإستراتيجيات لعمل هادف ومضبوط في إطار فوضى التوقع للحدث السياسي،فالفوضى الخلاقة تقترب بهذا المعنى من المؤامرة حيث تصبح أقنية الفعل السياسي وقنوات التواصل واتخاذ القرار مدروسة مسبقاً،لكن شروط إنجازها مرهونة بفضاء من الفوضى تتحكم بقدرات المستهدفين بغية شل هذه القدرات عن اتخاذ القرار الذي لا يخدم مصالح مراكز التحكم الخارجية.

١-استراتيجية الفوضى الخلاقة "البناءة"

إن الإستراتيجية الأميركية ترتكز على أيديولوجيا أميركية نابعة من مدرستين رئيستين: الأولى صاغها **فرانسيس فوكوياما** Francis Fukuyama (١٩٥٢-) تحت عنوان «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» ويقسم فيها العالم ما بين عالم تاريخي غارق في الاضطرابات والحروب،وهو العالم الذي لم يلتحق بالنموذج الديمقراطي الأميركي،وعالم آخر ما بعد التاريخي الديمقراطي الليبرالي آمن على الطريقة الأميركية.والثانية صاغها **صمونيل هنتنغتون** Samuel Huntington (١٩٢٧-٢٠٠٨) تحت عنوان «صراع الحضارات «معتبرا أن النزاعات والانقسامات في العالم سيكون مصدرها حضارياً وثقافياً .ويقسم الحضارة العالمية المتبقية إلى ثمانية وهي: الغربية والإسلامية والكونفوشيوسية واليابانية والهندوسية والسلافية واللاتينية والأفريقية .واعتبر أن النزاعات الدولية سوف تحدث بين أمم ومجموعات لها حضارات مختلفة .ذلك أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل.

ورغم التناقضات والتباينات بين النظريتين إلا أنهما تتفقان على ضرورة بناء نظام عالمي جديد تقوده الولايات المتحدة كما أنهما متفقتان على معاداة الحضارة

---

[٥٦] - جليل نعمة العبادي ،**قراءة في نظرية الفوضى الخلاقة** ،٢٠٠٨، أنظر موقع www.alkomi.org

[٥٧] - أ بهاء الدين الخاقاني ، **الفوضى الخلاقة، إستراتيجية السياسة الخارجية الأمريكية لمائة عام قادمة** ، دار المحجة البيضاء للطباعة و النشر ، ببيروت، ٢٠١٢ ،ص١٢٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإسلامية باعتبارها نقيضاً ثقافياً وقيمياً للحضارة الغربية تاريخياً.إن هذه الإستراتيجية تضع العالم أمام خيارين: إما التبعية لتفوّقها وجبروتها،وإما الفوضى والخراب والصدام والحروب،حيث يعتقد أصحاب هذه المدرسة بأن خلق حالة من الفوضى واللاإستقرار سوف يؤدي حتما إلى بناء نظام سياسي جديد يوفر الأمن والازدهار والحرية،إنه العلاج بالصدمة.

تتمثل الاهداف الإستراتيجية الأميركية في الحفاظ على التفوق الأميركي،وإغراق الآخرين بالفوضى والتخلف والحروب الأهلية. وهذه المعادلة دعت الولايات المتحدة إلى عدم التقيّد بآليات الأمم المتحدة حتى يكون تدخلها الاستباقي مباحا وأكثر ردعا وسرعة وتطابقا مع مصالحها القومية([٥٨]).ونجد أن تهديد القوى الأميركية هو العنصر الحاسم في نجاح هذه المظاهرات التي مثلت شرارة الفوضى البناءة الأميركية ([٥٩]). إذ أن مفهوم "غزو العقول " الأمريكي المرافق لنظرية الفوضى البناءة يقوم على أساس الرضوخ الداخلي،فهو يهدف إلى السيطرة على إرادة الإنسان من خلال إطلاق شعارات خداعة تشكل قيما مطلقة يتوق إليها الإنسان بشكل عام والدول النامية بشكل خاص،كالديمقراطية والحريات وحقوق الإنسان بحيث تستطيع استقطاب الكثيرين إلى صفوفها أي أنه احتلال من الداخل.([٦٠])

إن "الفوضى الخلاقة" استمرت كأداة وليست هدفا،لتحقيق المشروع الأساسي للإمبراطورية الامريكية، وهو مشروع (النظام العالمي الجديد). وعندما تتعثر "الفوضى الخلاقة" سياسياً، فإنها تقرر استخدام سلوك وسبل أخرى أصبحت واضحة، خاصة في "الشرق الأوسط"، تتمثل في:

١ - الاعمال العسكرية المباشرة و الغير مباشرة.و كذا الضغوط السياسية والاقتصادية.

٢ - إحداث تغييرات جذرية في مناهج التعليم والثقافة.

٣ - استخدام (الإعلام) بوضع"التشابك والفوضى والتفكيك"،كحالة عقلية وفكرية ونفسية أمام الشعوب.

٤- دعم وتزعم معظم حركات المجتمع المدني ولو من وراء ستارهذه الوسائل هي ما تعتمد عليها سياسة الفوضى الخلاقة بمنهجية وبرامج منظمة تخلق الفوضى في الواقع كرغبة وتوجه للتغيير والتطوير،وفي العقول،وفي أنماط التفكير،وفي التوجهات الاجتماعية والسياسية والثقافية، لتسود الفوضى في كل مكان ويتم بعدها لملمة الخيوط وخلق نظام جديد من هذه الفوضى المنتشرة. وعليه نستطيع القول أن"الفوضى"المتشكلة في حد ذاتها هي في طبيعة الحال نظام،طالما أن للفوضى فلسفة، وتوجهات ومناهج وصولاً إلى نتائج،إنها فعلا الفوضى المنظمة،وليست "فوضى النظام".

---

[٥٨] - سركيس ابو زيد ، الفوضى الدولية والاقليمية والفوضى غير البناءة في لبنان، عن موقع منتدى النهضة الإلكتروني بتاريخ ٢٠٠٥/٧/٣١

[٥٩] - د. محمد احمد الدليمي، في مواجهة الأمركة، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٤، ص ١٣٨

[٦٠] - د. غازي عبد الغفور، العولمة وأسئلة غزو العقول! " الفوضى الخلاقة" ومركزية الشرق الأوسط، مجلة المناضل العدد ٣٣٧ شباط ٢٠٠٦ مجلة داخلية لحزب البعث العربي الاشتراكي، يصدرها مكتب الإعلام والنشر في القيادة القومية للحزب. ص ٢٧ - ٢٨ - ٢٩

خامسا: نظريةالفوضى في علم الاجتماع

من بين خصوصيات الأنظمة المتقدمة شدة تعقيدها،وهي مجبرة على الامتثال لقواعد التي تسيرها لان أي تجاهل لهذه القواعد تعني حتما انهيار النظام.وقد يؤدي التعقيد الكبير للأنظمة إلى الاضطراب وعدم القدرة على السيطرة عليه مما يجعله يعدل اتجاهاته قصد تحقيق التكيف والنمو من جديد.في محيط مثل هذا حتى الانساق الاجتماعية التي لم تكتسب بعد نفس درجة التقدم معرضة لكل المتغيرات التي يفرزها هذا المحيط،فهذه الانساق التقليدية اكثر عرضة للتوتر والتصدع من سابقاتها.ونعتقد ان المجتمعات التقليدية التي حاولت الالتحاق بما يسمى بالركب الحضاري المتمثل في الدول الصناعية وذلك باستيراد تكنولوجياتهم ساهمت بطريقة غير مباشرة على افشاء الاضطراب الاجتماعي بسرعة كبيرة ومذهلة تفوق كل تقدير وتصور

لقد حضيت دراسة الفوضى باهتمام كبير من طرف العلماء الا انها سرعان ما شدت انتباه علماء الاجتماع فصبوا أنظارهم عليها،فعلى غرار الظواهر الفيزيائية تبين ان الانساق الاجتماعية هي الاخرى تمتلك نفس خصوصيات التعقيد،وفي هذا السياق اقترح مارك ميخايالس مجموعة من الشروط تمثلت في سبعة قوانين مرتبطة بالسلوكات النظامية والانساق الاجتماعية تنص على ان الانساق البسيطة قد تتحول الى انساق معقدة،وانها متحركة وديناميكية وجد حساسة بالشروط الاصلية،كما انها تضبط نظامها بنفسها،وهذه الانساق يمكن ان تضبط وتراقب من قبل ظاهرة الفوضى،ولهذا الغرض يضع علاقة واضحة بين الفوضى والظواهر الاجتماعية.وليس مارك ميخايالس الوحيد الذي اهتم بهذا الموضوع،فقد سبقه الكثير من المفكرين بدرجات متفاوتة اذ حاول هؤولاء العلماء ابراز خصائص قوانين مايكلس وان يوفروا الشروط المرتبطة بالنظام والضبط الذاتي في الانساق المعقدة كوجود حالة بعيدة عن التوازن وضرورة الحركة اللاخطية،اذ ان ظاهرة التنظيم الذاتي وشروطه يشكلون القاعدة الجديدة لتفسير جديد للتغيير الاجتماعي.وللانساق المعقدة خاصية ديناميكية التطور الاجتماعي القائم على سيرورة التقييم التجريبي،وهذه السيرورة ماهي الا استكشاف للاهداف التي تؤثر في توازن الانساق.وحسب هذا التصور فان غياب التوافق بين الاهداف المسطرة وحالة النسق هو الذي يولد الحركة والتفاعل الديناميكي.ان عدم المطابقة تحفز النسق على ايجاد موقف محدد حتى يتمكن من تحقيق التكيف مع المحيط المتغير.

التعقيد الاجتماعي والمتلازمة الاضطرابية

ثمة في نظرية الفوضى ما يسمى بـ"المتلازمة الاضطرابية" تشير إلى الخلخلة في النسيج الاجتماعي للمنظومة.وتعني أن مجموعة من الشروط أو الظواهر تتضافر لتؤدي فيما بعد إلى حرف المنظومة عن حالة الاستقرار ودفعها نحو سلوك غير قابل للتوقع أو التنبؤ،ويبدو سلوك المنظومة للوهلة الأولى شاذا لكن إعادة النظر سوف تبين عكس ذلك، بشرط أن نستخدم طرائق جديدة في التفكير.فالأحكام والتوقعات البشرية تخضع لتغيرات وتطورات عميقة في سياق الصيرورة الديناميكية للتعقيد الاجتماعي،حيث ان أية محاولة لحل التشابكات قد تخلق سيرورات دائرية من شأنها أن تشل الأفعال الفردية والجماعية،ويعتمد ظهور السلوك الشواشي على كل من الشروط الابتدائية التي تنشأ وتتطور فيها ديناميكية السيرورة الاجتماعية،وكذلك على القيم الحرجة للمتغيرات الفاعلة في تطور هذه السيرورة.وبما ان المسارات الاجتماعية المتوازية تتعرض للفوضى والاضطراب يمكن النظر إلى الأمر كتجل اجتماعي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لتلازمة الاضطرابية وعندما يحدث الاضطراب تصير الحالة المستقرة لتيار الأحداث الخطي واقعة تحت تأثير "دوامات" الخلخلة الاجتماعية، ويمكن وصفها مجازا بأنها "جزر" يمكن التيار "وتمثل هذه "الدوامات" المواضع التي تنبع منها التغيرات الاجتماعية الرئيسية المدفوعة نحو اتجاهات جديدة غير قابلة للتنبؤ بها من حيث قوتها أو عواقبها.

ويمكن أن نرى أثر متلازمة الاضطراب في أحداث بارزة، من قبيل تفكك الاتحاد السوفيتي والمنظومة الشيوعية الملحقة به.إذ على الرغم من وجود توازن واستقرار اجتماعي،إلا أن تشعبات واتجاهات متعارضة لم تلبث أن ظهرت،وقد بدت بطيئة في بداية الأمر،ثم تضخمت وتسارعت بتأثير الشروط الداخلية والخارجية،ودخلت المنظومة الشيوعية في مرحلة أزمة عميقة، دون أن تستطيع إعادة تنظيم ذاتها،مما أدى الى تلاشيها وبروز تنظيم جديد ذي مستوى أكثر تعقيدا.

لقد ترافق تفكك المنظومة مع انهيارات من مقاييس وأحجام مختلفة،فحدث على الصعيد الداخلي نمو خرج في البنيات الاقتصادية-الاجتماعية الشبيهة بالمافيا،كما انقلبت رأسا على عقب حياة الأفراد والأسر ومصائرها.وعلى الصعيد الخارجي،حدثت عدة حروب مأحقة،مثل الحرب في الشيشان والبوسنة،وكذلك حرب الخليج الثانية.يبدو اذا ان أثر المتلازمة الاضطرابية حاسما في تحديد مصائر بعض الأفراد الذين يطلقون التغيرات الاجتماعية القوية او يثيرونها.فعندما يقدم هؤلاء أفكارا أو أفعالا "مخلخلة"فهم لا يستطيعون ضبط الاضطراب الناجم عن ذلك،لذا فقد يصبح هؤلاء ضحايا اقوالهم او افعالهم

ان تطبيق نظرية الفوضى في العلوم الاجتماعية ليست مهمة سهلة،الا انه لا يمكن ان نتجاهل الفوائد التي من الممكن ان نتحصل عليها في استفساراتنا للظواهر الاجتماعية.فهذه النظرية سرعان ماظهرت قدرتها على التكيف مع متطلبات العلوم الاجتماعية رغم كونها فيزيائية و رياضية الأصل.

نستنتج في الأخير ان نظرية الفوضى تقدم للفكر الفلسفي والفكر الإنساني عامة رسالة مهمة، مضمونها أن ما يظن من ظواهر الطبيعة من فوضى أو عشوائية هي أبعد ما تكون عن هذا التصور ، فظواهر الطبيعة مبنية على قوانين محكمة من قبل حاكمها و خالقها ، و لكنها قد تخرج عن حالة النظام إلى اللانظام في تفكير الإنسان و قدراته العقلية المحدودة .